التعريف بكتابَي الدكتورة دلال عبّاس:
المرأة الاندلسيّة ونسخته الفارسيّة زنان آندلس

المقدِّمة

هـذا الكتـاب هـو فـي الأصـل رسـالة ماجسـتير أنهيـتُ كتابتهـا فـي العـام ١٩٧٤م، وأرجأتِ الظـروفُ مناقشـتها حتّى العـام ١٩٧٩م، من تلـك الظـروف ما جعل دراسـاتي وأبحاثـي تتحـوّل مـن أحـدِ روافـد الحضـارة العربيّـة الإسـلاميّة وآدابهـا، أي الحضـارة والأدب الأندلسـيَّين إلـى النهـر نفسـه بروافـده ومسـاراته المتشـعِّبة، وبمآلاتـه.

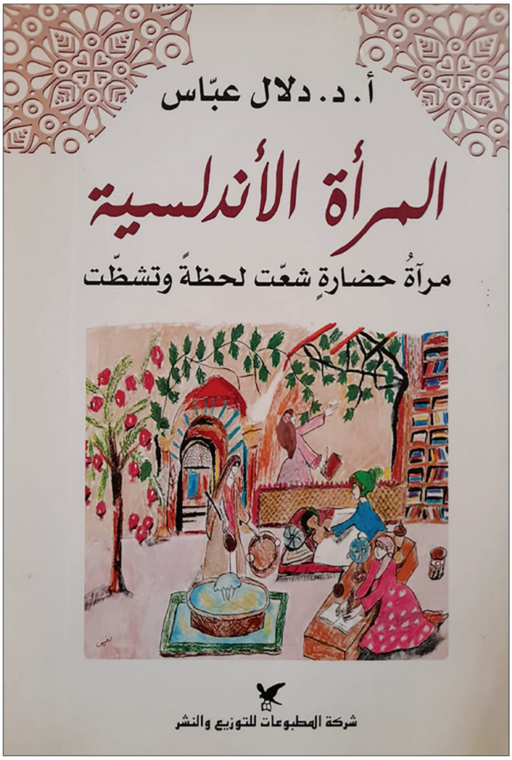

كانـت تراودنـي، بيـن الفينـةِ والأخـرى فكرةُ إعادةِ كتابةِ الرسـالةِ ونشـرها، كلّما عنّتْ لي فكرةٌ أو قرأتُ تاريخًا، أو عاينتُ حَدَثًـا لـه علاقةٌ برؤيـة ابـن خلـدون إلى نشـوء الدول والحضاراتِ واضمحلالِها، فأتمثّـل الحضـارةَ الأندلسـيّةَ كوكبًـا دُرّيًّا شـعَّ لحظـةً في ظـلام الغـرب، ومـا لبث أنْ تشـظّى واضمحلّ..

أخيرًا قرّرتُ نشرَ الرسالةِ كما هي، وإضافةَ بعضِ الحواشي والتواريخ الضروريّة. أمّا دوافع هذا القرار فتختلف اختلافًا جذريًّا عن دوافع اختيار موضوع رسالة الماجستير في العام ١٩٧١م، التي كانت في ذلك الحينِ دوافع شابّةٍ رومانسيّة، مُثقلٌ خيالها بما قرأتُه صغيرةً في الروايات التاريخيّة عن عبد الرحمٰن الداخل، ومعجزةِ وصول العرب إلى إسبانيا، وإلى أبواب فرنسا، وطاولةِ موسى بن نُصَير، وأميرةِ الأندلس، وبلاطِ الشهداء، وسقوطِ غَرناطة، آخر معاقل العرب في الأندلس، وزفرةِ العربيّ الأخيرة [لفظتا العرب والعربيّ تناسبان المرحلة الزمنيّة التي كتبتُ فيها الرسالةَ، لأنّ الأندلسيَّ عربيُّ اللغةِ والنتاجِ الفكريِّ والأدبيّ، شارَكَت في تكوينهِ أعراقٌ عدّة، أحدُها العرقُ العربيّ]، ومأساة بني سراج، والقصصِ التي تحكي هربَ الأندلسيّين بحرًا وبرًّا إلى مراكش وتونس، ووقوعهم في حبائل المهرّبين، وحمّامات قرطبة الألف التي هدمها الفرنجة العلوج... يخالط ذلك كلَّه وخزاتٌ تؤلمني كلّما قرأت تلميحًا في الأدب الفرنسيّ الكلاسيكيّ عن الموريسك... يُضاف إلى كلِّ ذلك دافعٌ يُناسبُ انخراطي يومها في الجمعيّات النسويّة، لأنْ أبحثَ في الأندلسِ التي أحببتُ عن أسبابِ اختلافِ المرأةِ الأندلسيّةِ اختلافًا جذريًّا عن المرأةِ المشرقيّةِ في عصرها وبعدَه...

الحديثُ عن المرأةِ الأندلسيّة تاريخيًّا واجتماعيًّا وأدبيًّا، حتّمَ العودةَ إلى مصادر التاريخ الأندلسيّ الأساسيّة - ولم تكن متوافرةً في الأسواق - ممّا أجبرني وأنا معلّمة مقيمةٌ في الجنوب أنْ أنتظرَ يومَ الجمعةِ، لأعودَ إلى تلك المصادر في مكتبات الجامعات في بيروت... وبما أنّ القراءة كانت، ولا تزال، بالنسبة إليَّ هدفًا بحدِّ ذاتها، قرأتُ كثيرًا. وعشتُ الأحداثَ التي قرأتُها، ونَسجتُ في خيالي قصصًا وحكايات لم تكتمل. هوسُ القراءة، جعلني أقرأ كلَّ ما له عَلاقة بالأندلس تاريخًا وثقافةً وأدبًا وفلسفةً: وفي تلك المرحلة قرأتُ - لغير الامتحان - ابن عربي وابن رشد وابن طفيل وابن مسرّة...

الآن، وأنا أكتبُ هذه السطور بعد أربعين عامًا ونيّف، أذكرُ أنّني كنتُ في تلك الأيّام أذرف الدمعَ حين أقرأ ما ألمَّ بالأندلسيّين من فواجع، ومدُنُهم تتهاوى الواحدةُ

تلوَ الأخرى بأيدي الفرنجة، وهم عنها لاهون. كان الواحدُ من أمراء الدويلاتِ المتنافسةِ المتناحرةِ، حين تسقط المدينةُ المجاورةُ له، يُتابع نمطَ عيشه الرغيد، يعيشُ ليومه، غيرَ آبهٍ بما يجري، ولا مكلّفٍ نفسَه عناءَ التفكير بغدِه، أو يعتقدُ- غباءً أو جُبنًا وتخاذلًا- أنّه سينجوإنْ هو هادنَ المغيرين، وحينَ يجيءُ دورُه، لا تنفعُه مهادنتُه في شيء، ولا يشكّلُ سقوطُه درسًا لحاكمٍ آخرَمجاور، يدفعُه ليستعدَّ للدفاع عن نفسه وعن أهلِه ومدينتِه، ليبكيَ في نهايةِ المطاف- إن بقيَ على قيد الحياةِ ذليلًا- مُلكًا لم يُحافظْ عليه كالرجال، أو يصيبه ما أصاب المعتمد صاحب إشبيلية، الشاعر المثقّفِ المترفِ، حلَّ به ما حلَّ بإمبراطور الصين، الذي كانت بلادُه في أوجِ مجدِها العمرانيّ والفكريّ والثقافيّ، وهويعيش وبطانتَه حياةَ ترفٍ ودعةٍ، يومَ بدأ جنكيزخان، جارُه، رحلتَه الدّمويّة، استعانَ به، فابتلعَه في نهايةِ المطاف، كراكبِ الأسدِ ظنَّ أنّه فرسُه، فإذا هوفريستُه، أو كالحملِ الذي صادقَ ذؤَيْبًا، حين استذأبَ أكلَه. لقد استعان المعتمِدُ بالمرابطين [من البربر الصحراويّين المتزمّتين]، لردّ غارات الفرنجة، ففعلوا، ومن ثمَّ استولوا على إمارتِه وأودعوه السجن. سقطتِ المدنُ الاندلسيّة- التي كانت كلُّ واحدةٍ منها تُشكّل إمارةً مستقلّة- الواحدةُ تلوالأخرى بأيدي الفرنجة، كما سقطت ممالكُ المسلمين في المشرق، المتراميةُ الأطراف، واحدةً تلوالأخرى تحت سنابك المغول. لقد استغرق سقوطُها عقودًا، ولم يجدِ المغول من يقفُ في طريقهم سوى قلّةٍ قليلة، والذي استشعرمن حكّامها وعقلائها الخطرَقبلَ وصوله إليه، لم يجدْ مَن يأخذ برأيه، أو يقف معه، أو يساندُه، وعامّةُ الناس كأمرائهم، يسمعون أنباء المجازر التي يرتكبها المغول، فيُصابون بالرُّعب والرُّهاب، ولم يُفِدهم رفعُ الراياتِ البيضِ والاستسلام، فقد قُتلوا في الحالَين، وكُوِّمَت جماجمُهم أهرامًا؛ قُتلوا جبناءَ متخاذلين، بدلًا من أن يُجنّدوا ليستشهدوا دفاعًا عن أنفسهم وأهليهم.

ليس التاريخ هوالذي يُعيد نفسَه، بل البشرهم أنفسُهم، وإنْ تغيّرت سحنُهم، وأزياؤهم، وأسنّتهم...دويلاتُ الأندلسِ، والدولُ المستقلّةُ عن الإمبراطوريّة العبّاسيّة آونةَ شيخوختها، ودويلاتُ المشرق في هذه اللحظة، هي هي، إمّا لاهيةٌ عن الأخطارِ

المحدقـةِ بهـا، وإمّـا معاونةٌ للفرنجـة والمغول والتتار والتـرك والبدو واليهـود و... والقلّةُ هـي التي تستشـعِر الخطـرَ، وتُحاول أنْ تتصـدّى له، قبل أن يصـل إليها...

مـا علاقـةُ هـذا الـكلام بموضـوع "المرأة الأندلسـيّة"؟ هنـا بيـت القصيـد؛ دوافعـي هـذه المـرّة، حيـنَ قـرَّرتُ أن أطبـع الرسـالة كتابًـا، لـم تَعُـدْ دوافعَ رومانسـيّة، أو نسـويّة، بـل حضاريّـة: النسـاء نصف المجتمـع، وأُمّهاتُ النّصـف الآخر، وعلى كـفِّ الأمّ تدورُ الكـرةُ الأرضيّـة [كمـا كانـت تقـول أمّـي رحمهـا الله]. كيـفَ تسـتقيمُ دورةُ الأرضِ إذًا إنْ كانـتِ الأمّهـاتُ كلُّهـنّ أو معظمهـنّ مـن الجواري؟

المـرأةُ مـرآةٌ تنعكس علـى صفحتِها صـورةُ المجتمع: أهيَ حـرّةٌ أمْ جاريـة؟ [لا يظنَّنَ أحـدٌ أنّ عصر الجواري قـد انقضى].

أحـدُ مَقاتـلِ الحكومـات التـي حكمـت بـلادَ المسـلمين فـي الشـرق والغـرب، منـذ تحـوّل نظـامِ الحكـم إلـى ملـكٍ عَضـوض، نظـامُ الحريـم، وتاليًـا صـراع الأخوة الأشـقّاء وغيـر الأشـقّاء علـى الحكـم، وإن كان صـراعُ غيرِ الأشـقّاء أمرَّ وأدهى وأشـدَّ عنفًا؛ ولمّـا أقـامَ عبـد الرحمٰـن الداخـل وخلفـاؤه دولتهم في بلادِ الإسـبان، لـم يكـن فـي ذهنـه، ولا فـي أذهانهـم نظـامُ حكـمٍ مختلِـفٍ عن نظام الحكـمِ الذي وُلـدوا من رَحِمِه في دمشـق أوّلًا، او نظام الحكـمِ فـي بغـداد، الذي أفنـوا أعمارهم محاوليـن تقليدَه في كلِّ شـيءٍ: فـي اقتنـاء الجـواري والغلمان، والتفنّـن بمظاهر الترفِ ووسـائلِه، والاهتمـام بالعمران، واقتنـاء المكتبـات [صـورة مصغّـرة باهتة وقِشـريّة لما يجري فـي بغداد]... وقد أسـرفوا كمـا أسـرف الملوك-الخلفاء في الشـرق، في اقتناء الجواري، وغالوا فـي أثمانهـنّ، وبلَغَ إسـرافُهم مَـداه في مـا أغدقوه على أولئك الجواري من أموالٍ وأعلاقٍ نفيسـة؛ فهذا عبد الرحمٰـن الداخـل يُهـدي واحدةً من جواريه عقـدًا ثمنه ثلاثة آلاف دينـار، وحفيده عبد الرحمٰـن الناصـر يُهدي جاريتَـه عقدًا جيءَ به من المشـرق [كان لزبيدة زوجة الرّشـيد، نُهـبَ مع مـا نُهبَ مـن القصر آونـةَ الفتنة بيـن الأمين والمأمون]، اشـتراه الناصر بعشـرة آلاف دينـار، في الوقتِ الذي كان فيه العامـلُ المجدُّ يعملُ أيّامًا ليُحصّلَ دينارًا واحدًا؛ وهـذه الجاريةُ نفسـها سـعت في مـا بعد لقتله وقتل ولـيِّ عهده، علَّ ابنهـا الطفلَ يصيرُ الحاكـمَ وهـي الوصيّةَ عليه، وهذا الأمرُ نفسُـه [أي الصراع على الحكم بين نسـاء القصر

-حرائـرَ وجوارٍ- لمصلحـة أبنائهـنَّ- ظـلَّ يتكـرّر، مـن بداية دخول المسـلمين إسـبانيا إلـى لحظـةِ خـروج آخرِهم منها: فحيـن كانت غرناطة آخـر معاقل المسـلمين في أوروبا على وشـك السـقوط في أيدي الفرنجة، كان الأميران الأخوان غير الشـقيقَين، يتقاتلان علـى الحكـم [هذه اللحظـات المفصليّـة صوّرهـا أمين معلـوف بدقّة في روايتـه "ليون الأفريقيّ"]...

مـن مظاهـر التـرف قصّـة الرميكيّـة التـي لـم تكـن قبـل أن يهواهـا المعتمد بـنُ عبّاد سـوى جاريـةٍ مـن الغسّـالات اللواتـي يغسـلن الثيـاب للنـاس على النهـر بأجـرٍ معلوم، رأت مـرّةً وهـي سـيّدة القصـر فـي دار الإمـارة في إشـبيلية نسـوةً مـن العامّـة يطـأنَ وهُنَّ حافيـات، فاشـتهت المشـيَ فيه، فأمـرَ المعتمدُ، فسُـحِقتِ الطّيوبُ وذُرّتْ في سـاحةِ القصـرِ حتّـى عمّتْـه، ثمّ نُصِبَـتِ الغرابيـلُ، وصُبَّ فيها مـاءُ الوردِ على أخـلاط الطيب، وعُجِنـتْ بالأيـدي، حتّـى صـارت كالطيـن، وخاضَتْه مـع جواريهـا...

إذا تركنـا السياسـةَ والصـراعَ والمؤامـراتِ، ونشـوءَ الـدولِ وسـقوطها، وإذا تجاوزنـا الحديـثَ عـن التـرف والدّعةِ، وما يسـتتبع ذلك، فإنّ المرأةَ الأندلسـيّة فـي تلك البلادِ الجميلـةِ البعيـدةِ، مختلفـةٌ اختلافًـا جذريًّـا عـن المـرأةِ المعاصـرةِ لهـا فـي المشـرق، التـي ظلّـت علـى الرّغـم ممّـا أعطاهـا إيّاه القـرآنُ الكريمُ مـن حقـوق، وعلـى الرغم من كلِّ مـا وصـل إليـه العربُ والمسـلمون من رقـيٍّ وحضارةٍ فـي العصر العبّاسـيّ، خاضعةً لأعـرافِ البـداوةِ وتقاليدِهـا الممسِـكَةِ بأعنـاقِ العـربِ، والقابعةِ في تلافيـفِ أدمغتهم، والمسـيطرةِ علـى عقولهم.

الأندلسـيُّ والأندلسـيّة، نتـاجُ أعـراقٍ متباعـدة، فرجـالُ الجيـلِ الأوّلِ مـن العـربِ الفاتحيـن تسـرّوا أو تزوّجـوا إسـبانيّاتٍ أو بربريّـاتٍ، فوُلِـدَ جيـلٌ ليـس عربيًّـا محضًـا، ولا بربريًّا ولا إسـبانيًّا، فضلًا عن أهل البلادِ الذين أسـلَموا، وانخرطوا في المجتمع الجديد، وتوالَـتِ الأجيـالُ المختلِطـةُ الأعـراقِ، تعيـش فـي مجتمـعٍ لا تُعشـعِشُ فيـه أعـرافُ البـداوةِ وتقاليدُها، التي حَجَبَت وجهَ الإسـلامِ الحضاريّ. رجالُ الطبقة الأرسـتقراطيّةِ وحدَهـم كانـوا يحاولـون تقليـد الأرسـتقراطيّةِ العربيّةِ في المشـرق، أمّا الطبقة الوسـطى وعامّـة النـاس فأمرهـم مختلف...

التعليم هو الذي جعل الأندلسيّةَ مختلفةً عن المشرقيّة. لقد كان تعليم البنات شائعًا لدى الأندلسيّين بمختلِف طبقاتهم، وكان يُسمح للبنات أن يتعلَّمن في تلك المدارس كالصِّبية: القرآن الكريم، واللغة، والخطّ، والأدبَ والشِّعر، والحساب...

نساءٌ يبرزن في مجال التعليم ويكونُ من تلاميذهنَّ رجالٌ مشهورون، وأخريات يُنشئنَ مدارسَ خاصّة بهنَّ لتعليم الفتيات والنساء؛ وأُجيزت نساءٌ بالإفتاء والتدريس، ومنهنّ من علَّمنَ في بيوتهنّ، ومن شاركن في السباق المحموم لاقتناء المكتبات، فكان لبعضهنّ مكتباتٌ خاصّة عامرةٌ بالمصنّفات... نساءٌ تعلّمن الطبَّ والتمريضَ ومارسنَه مهنةً، [فالزهراوي ٣٢٥-٤٠٤هـ/٨٣٦-١٠١٣م، الطبيب الجرّاح الذي كان يقول إنّ "العلم مشاعٌ وحقٌّ لكلِّ إنسان، ولكلِّ الأجناس، وفي كلِّ الأزمان، ومَن حَجَبَ علمًا فهو في النار، ومَن احتكر علمًا أو سرًّا من أسرار العلمِ فهو في النار"، كان من بين تلاميذه نساءٌ أتقنَّ جراحةَ التوليد، وممرّضاتٌ أعدّهنّ لرعاية المرضى...[مارس بعضُ تلاميذه الجراحةَ في أوروبا سرًّا لأنّ الكنيسة يومها كانت تحرّم إجراء العمليّات وتعدّها اعتداءً على الجسد الذي خلقه الله تعالى]. ونساءٌ تبارَيْنَ في إتقانِ الخطّ، وعملنَ كاتبات في قصورِ الحكّام، أو في بيوتهنّ يقصدهنّ الناسُ ليكتبْنَ لهم العرائضَ لقاء أجر...

أمّا الفقيهات وحافظات القرآن الكريم، فكنّ كثيرات، وقد بولغَ بتعدادهنَّ حتّى قيل إنّ ستّين ألف حافظةٍ كنّ في أنحاء الاندلس، ترفعُ كلُّ واحدةٍ منهنّ قنديلًا فوقَ بيتها في الليل إشارة إلى أنّ هنالك حافظةً، تمييزًا لها من غيرها.

ليس من حقِّنا أن نقارن على سبيل السخرية بين هؤلاء النسوة وبين صاحبات الرايات في العصر الجاهليّ (ومنهنّ سميّة أمُّ زيادِ بنِ أبيه)، لكنْ من حقِّنا أنْ نقارن بينهنّ وبين المسلماتِ العربيّات في المشرق قديمًا وحديثًا، اللواتي لم ينعَمْنَ بالحقوق التي منحها لهنّ القرآن الكريم عمليًّا، لأنّ العلاقاتِ الاجتماعيّة بمعظمها كانت وظلّت خليطًا من الفهم القِشريّ للدين، ومن التقاليد والاعرافِ السابقةِ على الإسلام.

إنّ كثرةَ الفقيهات والمكانةَ التي بلغتها المرأة في مجال الفقه وحفظ القرآن

الكريم وتعليمه، هي التي نبّهتِ الأندلسيّين إلى التساؤل حولَ عَلاقةِ المرأةِ بالنّبوّةِ، وأوقعتِ الجدلَ بين الفقهاءِ القرطبيّين في هذه المسألة، وهذا ما أشار إليه ابنُ حزم، الذي يعترف هو نفسُه أنّ النساءَ هنّ اللواتي علّمنَه القرآن الكريم واللغة، وأبى أنْ يقبل إطلاقَ الحديثِ القائل بنقصانِ الدين والعقلِ في المرأةِ في كلِّ الأحوال، وقال: "...إنّنا بالضرورة ندري أنّ في النساء مَن هنّ أفضلُ من كثير من الرجال، وأتمُّ دينًا وعقلًا، غير الوجوه التي ذكر النَّبيّ".

في الأندلس، كان النساء يشاركن في الصلاة في الجوامع في مقاصيرَ خاصّة.

اللافتُ بالنسبة إلى مكانة المرأةِ في الاندلس، أنّ "المرابطين" و"الموحّدين" على الرّغم من تعصّبهم الدينيّ والمذهبيّ، كان للمرأةِ لديهم منزلةٌ خاصّة بسببِ أصولهم البربريّة، وفي عصرهم ظهرت قصائدُ في مدحِ النساء، تدلّ على ما كان لهنّ من سلطةٍ واسعةٍ في الحياة الإداريّة والاجتماعيّة؛ يقول الأعمى التطيلي مادحًا إحداهنّ:

مليكةٌ لا يوازي قدرَها مَلِكٌ
أنثى سما باسمها النادي وكم ذكرٍ
وقلّما نقصَ التأنيثُ صاحبَه
كالشمس تصفرُّ من مقدارِها الشُّهبُ
يُدعى كأنَّ اسمَه من لؤمِهِ لَقَبُ
إذا تُذُكِّرَتِ الأفعالُ والنَّصَبُ

ويقول ابن خفاجة في مدح أخرى:

تُنمى إليه من الحرائر حرّةٌ
مشهورةٌ في الفضلِ قِدمًا والنهى
تُغني بسؤدُدِ ذاتِها أن تنتمي
والجودِ شهرةَ غُرّةٍ في أدهمِ

وكما حاولتِ المرأةُ أنْ تخرج من تبعيّتِها الاقتصاديّةِ المفروضة عليها مستغلّةً ثقافتها للعملِ في الكتابةِ أو التعليم، أو الإفتاء، استخدمَتْ موهبتها الشعريّةَ سببًا من أسباب الرزق: تعمل في القصر معلّمةً للنساء، أو كاتبةً للأمير، وفي الوقت نفسِه تمدحُه مطالبةً بحقٍّ لها، أو مطالبةً برفع الحَيفِ عن بلدتها، أو إقالة والي بلدتها المرتشي [فصل الشواعر].

بلغت إحدى الشواعر من الشهرة والاحترام، انْ صار الناسُ يقصدونها لتسطّرَ لهم شيئًا من شعرها على أوراقٍ يحملونها ويحتفظون بها. وشاعرةٌ يتمنّى والدُها أن يكونَ أخوها مثلها... وأخرى تناظرُ الشعراءَ وتهاجيهم، وولّادة تجعل صالونَها الأدبيَّ مجمعًا للأدباء وللشّعراء...

مع ذلك فإنّ المادّة الشعريّة التي جمعناها من مختلِف المصادر، لا تفي بالغرض، وإنّما تُعطي فكرةً عامّةً عن كثرة الشواعر، وعن المواضيع التي تطرّقنَ إليها في أشعارهنّ. والسبب؟

إنّ مؤرّخي الأدب، المرتبطين بالأرستقراطيّة الحاكمة في معظمهم، لم يدوِّنوا شعرَ النساء كلّه أو بعضَه، كما أنّهم لم يدوّنوا الأدبَ الأندلسيَّ الشعبيّ، الذي لم تصلنا منه سوى الأزجال القليلة...

إنّ ذوق مؤرّخ الأدب وذوق الذين احتفظوا بكتابهِ مخطوطًا طيلةَ قرون، أو نسخوا عنه نسخةً خاصّةً بهم، هو الذي ساهمَ في حفظ النصوص أو ضياعها. هذا بالنسبة إلى الأدباء بصورة عامّة، أمّا بالنسبة إلى النساء بصورةٍ خاصّة، فقد كان للمؤرّخين الذين ألّفوا كتبَهم بعد سقوط الأندلس جزئيًّا أو كلّيًّا، أيْ في مرحلة الإحباط، والتقوقع على الذات، والتعصّب الدينيّ مقرونًا بالجهل موقفٌ خاصٌّ جدًّا. يقول أحدهم عن ابن الأبّار صاحب كتاب التكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال: "إنّه أكثرُ المؤرّخين تورّطًا في الخطأ، لأنّه ذكر في كتابه نساءً تُنزَّهُ الصحفُ عن تسويدها بذِكرِهنّ مع أهلِ العلمِ الذين هم خواصُّ عبادِ الله، نستعيذُ باللهِ مِن إعمالِ القلمِ في ذكر واحدةٍ منهنّ، ونرى الإعراضَ عنه دِينًا... إنّها لعثرةٌ لا تُقال، وزلّةٌ لا تُغتفر، وسيّئةٌ لا تكفير لها، وكبيرةٌ يجب المتابُ منها والإقلاع عنها" [فصل الشواعر]. وبعضُ

المؤرّخين الذين ذكروا الشواعرَ، لم يذكروا كلَّ ما قالته الشاعرةُ، فالضبّيّ المتوفّى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م، حين يذكر إحدى الشواعر يقول: "أنشدني بعضُ أصحابِنا لها شعرًا، لا أذكره الآن". وفي معظم الكتب ذُكرت أسماء شواعر أو نسبتهنّ من دون أنْ يُذكرَ بيتٌ واحدٌ لهنّ. حتّى القليل الذي وصلنا من شعر النساء، نقله المؤرّخون بعضهم عن البعضِ الآخر، من دون إضافات، وأحيانًا مختصرين الأخبارَ الأولى. وهنالك عددٌ من الشواعر ذُكرت لهنّ بعض الأبيات، من دون ذكر انتمائهنّ أو تاريخ ولادتهنّ... من اللافت أنّ المصادرَ القديمة متّفقة كلّها على أنّ الشاعرة حفصة بنت حمدون الحجاريّة، إحدى شواعر القرن الرابع الهجريّ / العاشر الميلاديّ، أوّل أندلسيّةٍ تقول الغزلَ، وأنّها شاعرةٌ مكثرة، مع ذلك لم يذكر صاحبُ المُغرِبِ الذي قال عنها "إنّ لها شعرًا كثيرًا، وإنّ بلدها يفخرُبها" سوى أربعة أبيات، أمّا ابنُ الأبّار فقد اكتفى بالقول "إنّها كانت أديبةً عالمةً شاعرةً" ثمّ ذكرَ لها بيتَين فقط.

الشاعرتان اللتان وصلنا من شعرهما أكثر من غيرهنّ من الشواعر هما ولّادة وحفصة الركونيّة، وذلك لأسبابٍ أوّلها أنّ عددًا من الذين ذكروا ولّادة، قد ذكروها في سياق الكلام على حبيبها الشاعر ابن زيدون، وذكروا من شعرها ما كان موجّهًا إليه، وما وصلنا من شعرها يقلُّ عن مدى شهرتها. أمّا حفصة الركونيّة فقد أحبّها الوزير الشاعر أبو جعفر بن سعيد، أحدُ الذين ساهموا في كتابة المُغرب في حِلى المَغرِب، أحد أهمّ مصادر الشعر الأندلسيّ - وقد دوّنَ أخباره وأخبارها - وعنه نقلَ المؤرّخون الآخرون الذين تحدّثوا عنها.

آخر الكلام أنّ النساء الأندلسيّات اللواتي كان الفرنجة يسبونهنّ كلّما سقطت مدينةٌ من المدن الأندلسيّة، حملنَ معهنّ إلى أوروبا بعضَ مظاهر الحضارةِ العربيّة- الإسلاميّة في الأندلس. أمّا العائلات التي هربت إلى مدن السهل التونسيّ ومراكش، على الرّغم من أنّهم كانوا لا يختلفون في مظهرهم الخارجيّ عن السكّان الأصليّين، ظلّت عاداتهم داخل منازلهم أندلسيّة، لا سيّما احترامهم للنساء اللواتي كنّ كما يقول المؤرّخون يشاركنَ في المناقشات العائليّة.

سخن کوتاه با خوانندگان فارسی زبان

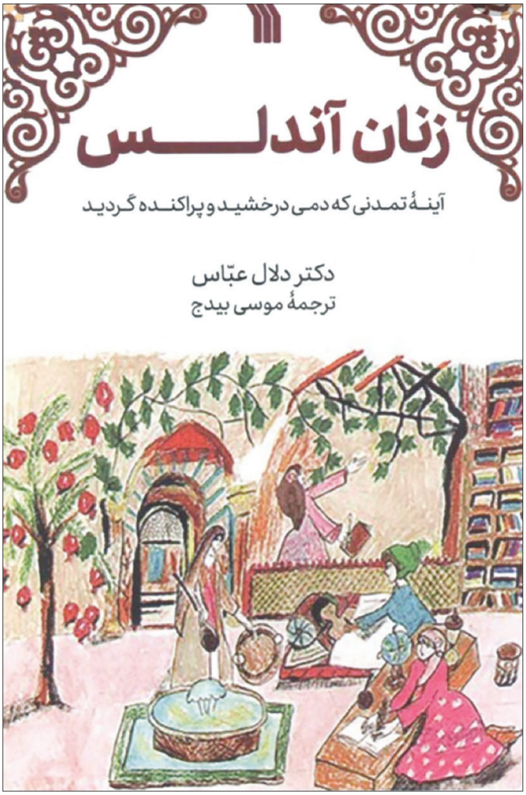

سلام دوستان! خوشحالم که کتاب "زنان آندلس" را به زبان زیبای فارسی می‌خوانید. من عبارت "آینه‌ی تمدنی که دمی درخشید و پراکنده گردید" را نیز به عنوان کتاب افزوده‌ام. چرا که معتقدم که زن آینه‌ی تمام تمدن‌هاست چه رسد به تمدن اسلامی که در طول قرن‌های متمادی در اروپا می‌درخشید. این قرن‌ها هرچند به حساب کائنات یک لحظه هم نبوده اما آثار آن انکار ناپذیر است. درخشش تمدن اسلامی در اروپا بعد از چند قرن پراکنده گردید، اما خاموش نشد و بارقه‌های آن که از طریق اسپانیا به اروپا وارد شده بود به حیات ادامه داد.

در مقدمه‌ی کتابم می‌خوانید که من کتاب زنان اندلس را سال‌ها پیش نوشته بودم و با تاخیر به دست چاپ سپرده‌ام. علت این تأخیر اشتغال من به پژوهش در رشته‌های متعدد بوده است. من در این سال‌ها خود را به پژوهش درباره‌ی آندلس محدود نکردم، بلکه بسیاری از جنبه‌های فرهنگی - تمدنی اسلام را مد نظر داشته‌ام و روی ادبیات عربی و فارسی، قدیم و جدید، و ترجمه از فارسی به عربی تمرکز کرده‌ام.

از ترجمه اسم بردم شاید برخی فکر کنند که این کتاب را من به فارسی نوشته‌ام اما

آمدن نام دوست عزیز و شاعر چند زبانه و مترجم توانا "موسی بیدج" روی جلد این کتاب این پندار را تصحیح می‌کند. خوشحالم این کتاب با قلم ایشان به فارسی درآمده است.

من از لحظه‌ای که در فروردین ۱۳۵۵ برای اولین بار به خاک ایران عزیز پا گذاشتم، دنیای دیگری به رویم باز شد و باعث شد که به جهانی زلال و شفاف و بدور از هرگونه گرایش قومی و قبیله‌ای به کارم ادامه دهم.

من در تمام این سال‌ها، بر اساس مطالعه و تحصیل و توریسم، به این یقین رسیده‌ام که تعصبات قومی و نژادی با اسلام هم‌خوانی ندارد و این دو بمانند دو خط ریل‌اند که هیچگاه به هم نمی‌رسند و یکی نمی‌شوند. لذا پژوهشگری که میراث تمدنی اسلام را مورد مطالعه قرار می‌دهد نباید از تأثیر عادت‌ها و سنت‌های قبل از اسلام غافل شود. او باید اثر آن سنت‌ها را بر عرب‌های مسلمان شده - پس از دوره‌ی صدر اسلام - مورد کنکاش قرار دهد و آن را با چگونگی تطبیق شعائر اسلامی در میان مسلمانان غیرعرب در کشورهای دیگر مقایسه کند...

اهمیت کتاب زنان آندلس آنجاست که درباره‌ی فرهنگ و تمدن اسلام در اسپانیا سخن می‌گوید؛ این تمدن بدون شک پایه و اساس آن چیزی است که امروزه به عنوان تمدن غرب در تمام زمینه‌های علمی، فلسفی، اجتماعی و عمرانی نامیده می‌شود..

باید افزود که مردمان آندلس، مسلمانانی عرب زبان بودند اما از لحاظ نژادی از قوم عرب به شمار نمی‌آمدند. در رگ های آنان خون فاتحان عرب و غیرعرب و همچنین خون بربرها و بشکنسی‌های اسپانیایی مسلمان شده و خون مادران بربری و اسپانیایی جریان داشت.

این کتاب به یک پرسش بنیادین پاسخ می‌دهد که چرا و به چه دلیل وضع زن مسلمان آندلس، از وضع معاصران خود در بغداد به مراتب بهتر بوده است؟ و این در حالی است که بغداد اصل و آندلس تصویری از این اصل بوده و این اختلاف چگونه و بر چه اساس پیش آمده بود؟

اولین فرضیه این است که عادت‌ها و سنت‌های عرب جاهلی، بعد از اسلام

همچنـان از نظـر اجتماعی سـیطره داشـت امـا این سـنت‌ها به دلایل متعـدد، همگی به غـرب و اسـپانیا منتقل نشـدند...

من و کسـانی که در این زمینه پژوهش کرده‌اند همواره با سـؤالی مشـابه روبرو شده‌ایم و اوضـاع زنـان در ایـران را بـا اوضـاع زنـان در کشـورهای عربـی از نظـر قانونـی، حقوقی، علمـی و اجتماعی مقایسـه بعمـل می‌آوریم.

دیگـر آنکـه از دوسـت عزیـز جناب دکتر عبـاس احمدوند و از انتشـارات سـروش که کتـاب مـن را منتشـر می‌کند هـم تقدیر و تشـکر می‌کنم.

نبطیه / جنوب لبنان

١٧ ژوئن ٢٠٢١

د. دلال عباس

كلمة موجّهة إلى أهل الفارسيّة

تحيّـةً طيّبـةً أوجّههـا إلـى الأخـوة والأصدقـاء الذيـن سـيقرؤون كتابـي: «المـرأة الأندلسـيّة مـرآةُ حضـارةٍ شـعّت لحظَـةً وتشـظّت» بالفارسـيّة. نعـم المـرأةُ بالمطلق مرآة الحضـارة التـي تمثّلها؛ فكيـفَ إذا كانت هـذه الحضارة هي الحضارة الإسـلاميّة التي شـعّت قرونًـا فـي الغـرب الأوروبـيّ، قرونـًا لا تُعـادل لحظـةً فـي عمـر الزمن، ثـمّ تشـظّت ولـم تنطفـئ، تناثـرت أنـوارًا شـعّت علـى الغـرب. لقد كانـت إسـبانيا المسـلمة المعبر الـذي عبرتْـه الحضارةُ الإسـلاميّة بمختلِـفِ فروعِها إلـى الغرب ... أقول لقـراء الكتاب بالفارسـيّة: كنتـم سـتظنّون أنّ الكتـاب موضـوعٌ في الأصلِ باللغـة الفارسـيّة، لولا ورود اسـم المترجـم الصديـق العزيـز المتعـدّد اللغـات الدكتور موسـى بيدج علـى الغلاف. أسـعدني أنـه ترجـم هـذا الكتـاب باللغـة الفارسـيّة التـي نعشـقها جميعًـا وهـو الشـاعر القديـر باللغتين.

كنـت قـد كتبـتُ فـي المقدّمـة التـي وضعتهـا للنسـخة العربيّـة، أنّ نشـرَ الكتـاب قـد تأخّـرَ أكثـر مـن أربعيـنَ عامًـا، لأنّ دراسـاتي وأبحاثـي قـد نَحَـتْ منحًـى آخَـرَ. تركتُ

الغوصَ في رافدٍ واحدٍ من روافدِ الحضارةِ والثقافة الإسلاميّتين، أي الرافد الأندلسيّ، للتبحّرِ في النهر نفسه بروافده ومساراته المتشعّبةِ ومآلاته، قصدتُ بذلك اهتمامي بالحضارة والثقافةِ الإسلاميّتين، وضمنًا الأدب باللغتين العربيّة والفارسيّة قديمه وحديثه والترجمة من الفارسيّة بالعربيّة؛ وبتّ أرى الأمور بمنظار شفيفٍ لم تُعكّر صفاءه أدنى نزعةٍ قوميّةٍ أو عنصريّة. بدأ ذلك منذ اللحظةِ التي وطِئت فيها قدماي أرضَ إيران العزيزة في الأوّل من آذار من العام ١٩٧٦م.

شرّقتُ وغرّبتُ في قراءاتي ودراساتي وتدريسي، وتوصّلتُ على المستوى الشخصيّ إلى قناعةٍ راسخةٍ مفادُها أنّ التعصّبَ القوميَّ العنصريَّ والإسلام يتحرّكان على خطّين متوازيين، لا يمكن أن يلتقيا. لذلك يتوجّب على الباحث الذي يدرس التراث الإسلاميّ أن يأخذَ في الحسبان تأثير العادات والتقاليد العائدة إلى ما قبل الإسلام في كيفيّة تطبيق العرب للإسلام بعد العصر الراشديّ، وفي كيفيّة تطبيق المسلمين من غير العرب للإسلام في الأقطار التي دخلها الإسلام...

أهمّيّة كتاب المرأة في الأندلس تكمن في كونه يتحدّث عن الحضارة الإسلاميّة في إسبانيا، وكانت الركيزة والأساس لما يُسمّى اليوم الحضارة الغربيّة على الصعد كافّةً: العلميّة والفلسفيّة والعمرانيّة والاجتماعيّة...

الأندلسيّ مسلمٌ عربيّ اللغة، لكنّه ليس عربيًّا بالمفهوم القوميّ من حيث انتماؤه العرقيّ. في عروقه دماء الفاتحين العرب وغير العرب من المسلمين الأوائل، ودماء البربر والبشكنس الإسبان الذين أسلموا، ودماء الأمّهات البربريات والإسبانيات .

هذا الكتاب يجيب عن سؤالٍ جوهريّ: لماذا كان وضع المرأة المسلمةِ في الأندلس أفضل من وضع معاصرتها في بغداد؟ علمًا أنّ بغداد كانتِ الأصلَ والأندلسَ الصورة، وبماذا اختلفتْ صورةُ الوجهِ عنِ الوجهِ نفسه ولماذا؟

الفرضيّة الأولى أنّ التقاليد العربيّةَ الجاهليّةَ التي ظلّت مسيطرةً في الشرق بعد الإسلام على المستوى الاجتماعيّ، لم تنتقل بمجملها إلى إسبانيا المسلمة لأسباب عديدة ...

سؤال شبيهٌ نوجهه دائمًا إلى الذين نخاطبهم بحثيًّا ونحن نقارن بين وضع

المرأة اليوم في إيران وبين وضع المرأة في الأقطار العربيّة، قانونيًّا وحقوقيًّا وعلميًّا واجتماعيًّا...

أجدّد شكري وتقديري للأستاذ موسى بيدج الذي ألبسَ النصّ حلّةً فارسيّةً تليق به، وأشكر الصديق العزيز الدكتور عباس احمدوند، والشكرُ موصولٌ لدار سروش التي أسعدني أن تكون هي الناشرة للكتاب بالفارسيّة.

دلال عباس

النبطيّة؛ جنوب لبنان؛ ١٧

حزيران-يونيو ٢٠٢١